سـرقة بغـير سـارق

أقصوصة مصرية

من الذكريات التي تستأثر بوجدان كامل أفندي كامل واحدة كلما استدعاها مـن غياهب الماضي لبث في هالة من نور الوضوح والقوة وأيقظـت في صـدره العواطـف والانفعالات التي بعثها فيه وقت حدوثها، فتتمثل لوعيه ممتلئة حياة، حتى لتوشك أن تحرك أعضاءه وتدفع بالدم إلى أطرافه دافقا...

كان ذلك لسنوات خمس خلون. وفى مساء من أماسي يناير والجو قارس الـبرودة، والهواء يندفع في شوارع القاهرة مزمراً يبعث القشعريرة في الأطراف المرتعشة والأسـنان المصطكة. وكان يأوي من سينما ديانا إلى مأوى دفيء، ساخن بأنفاس النظارة، فاطمـأن إلى مجلسه من الصفوف الخلفية واضعا معطفه على حجره متتبعا الحوادث التي تعرضـها جريدة البرق.

ولم يكن ذلك اليوم خلى البال ولا صافى النفس، فقد احتدم الشقاق بينه وبين رئيس قسم الرسم بوزارة الحربية. ونفذ صبر الرجل فكتب مذكرة يقترح فيهـا حرمانـه مـن العلاوة التي يستحقها قريبا، واجمع على رفعها إلى المدير العام، وذهبت مساعي محبي الخير سدى، فلم تثن الرجل عما اجمع عليه. وكان يحتقر رئيسه ويخيل إليه شبابه انه تركه بالية ولى زمانها، على انه لم يغب عنه معنى المذكرة لو تحقق الاقتراح التي تضمنته، واسـتولت عليه الكآبة وتبلبلت أفكاره وظل يومه مغتما. وقد مضى إلى السينما فرارا مـن فكـره، ولكنها لم تغن عنه كثيرا، فجعل يتابع أخبار جريدة البرق المصورة بانتباه مذبذب، بين ما تعرضه الشاشة وما تقلق له نفسه، حتى أضاءت الأنوار مؤذنة بالاستراحة، فنهض واقفـا وترك معطفه على مقعده، ومضى إلى المقصف فاحتسى فنجانا من القهوة، ووجد الجو في الخارج شديد البرودة فعاد إلى مقعده واتخذ مجلسه واضعا معطفه على حجره كما كـان. واخذ يتسلى بالنظر فيما حوله في هدوء وعدم إكتراث، ثم لاحت منه إلتفاتة إلى معطفـه فخال انه يرى شيئا لم يتبينه يبرز من الجيب، فأمعن فيه النظر فأدرك انه طرف ورقة مـن ذات الجنيه، ولاح في وجهه الإنكار، لأنه ذكر جيدا انه غادر البيت وجيبا معطفه خاليان ! وقد قطع الطريق ما بين محطة الترام والسينما واضعا يديه في جيبيه، وهـو إلى ذلـك

استبدل بأخر جنيه تبقى له من مرتبه نقودا فضية، فمن أين أتى هذا الجنيه ؟ وكيف وضع في جيبه !

وتحير من أمره، لان وجود جنيه غريب في جيب إنسان مما يحير حقـا. خاصـة اذا حدث هذا في مكان عام كالسينما حافل بخلق حاشد من الناس، وخطر له خاطر عجيب، والخواطر ترد على الذهن أحيانا كأنما تبعثها قوة خفية فتكشف عن حقائق غاية في القوة والإبداع، أو توقع في الضلال المبين. وفى كلتا الحالتين يغدو الإنسان لعبة بين يـديها لا رأى له ولا حيلة. وقد خطر له أن يكون بين الجالسين حوله نشال بارع، لعله دس يداً إلى جيب واحد من جيرانه وانتشل الورقة النفيسة، ولكنه لسبب من الأسباب لم يتمكن مـن إيداعها جيبه، أو خشي أن تلفت حركته بعض الأنظار، فدسه في جيب معطفه حتى يعود إليه في امن من الرقباء..... وقد حاول أن يجد لظهور الجنيه في جيبه تعليلا فلم يظفر إلا بذا، وقوى أثره في نفسه، فاشتد وضوحه في ذهنه، وصـارت لـه صـفة الحقـائق الملموسة، واستولى عليه القلق، فابتعدت يده عن الجيب، ورفع عنه ناظريه، لأنه أيقـن أن عينا بغير شك تراقبه عن كثب، واشتد قلقه، واستحوذ عليه الخوف، وأمضته هذه الحقيقة الرهيبة، وهى انه يحوز جنيها مسروقا... فكيف يطمئن، وخطر الافتضاح قد يكون اقرب مما يتصور !؟... وازدادت مخاوفه، وتساءل ساخطا: من عسى أن يكون ذلك الذي أوقعه في الحرج والضيق ؟... انه يذكر حين اشرف على مقعده بعد احتساء القهوة، انـه رأى جاره الأيسر مائلا في جلسته إلى ناحيته، انه يذكر ذلك جيدا، فهل كان يتوثب لاسترداد صيده ؟ .. إن قلبه يحدثه بان ذلك الجار هو النشال الخطير... وأراد أن يختلس منه نظرة، وقد وجد في تحقيق إرادته مشقة، فعطف رأسه بعد تردد إليه. وفى تلك اللحظة تحول راس الرجل نحوه، فالتقت عيناهما فخفق قلبه بشدة، وعض طرفه، وقد أحس نظرته تنفـذ إلى صميم قلبه، وقطع الشك باليقين، فلم يعد يشك في انه ناشل الجنيه الماكر، وقوى شعوره بأنه فطن إلى قلقه ومخاوفه، وانه – بتلك النظرة الحادة النافذة – قرأ أفكاره وهواجـسه، ولا ريب انه يرصد حركاته، ويراقب الورقة الثمينة بطرف خفـي سـاهر وهـو آمـن مطمئن...

وانطفأت الأنوار وبدأ عرض الفلم فارتاح للظلمة قليلا، ولكن جاره مـال نحـوه وارتفق يد مقعده واسند ذقنه إلى كفه، وقد تمنى صادقا أن يسترد الجنيه ويكفيـه شـره، ولكنه في نفس الوقت تحسست يده حافظته في خوف وحذر، وعلى حين غرة خطر لـه خاطر جديد اشد عذابا من الأول... ألا يجوز أن الرجل وجد الجنيه بعد استلابه معلمـا بإمضاء أو نحو ذلك فدسه في جيب معطفه حتى يطمئن إلى غفلة صاحبه ؟... انه فـرض محتمل جداً، وقد يفتقد المسلوب الجنيه فلا يجده، وهنالك يتهـدده خطـر الافتـضاح والجريمة، ويعوزه الدليل الذي يدفع به عن نفسه التهمة الخطيرة... وبلغ به القلـق حـد الذعر والفزع، فتفصد جبينه عرقاً بارداً، وخال أن طمأنينته وسعادته وشرفه أمست معلقة أو بخيط واه، إنقصافه رهن بإشارة بسيطة تصدر عن صاحب الورقة المهول. وتململ في مجلسه، وأرهقت أعصابه إرهاقاً شديداً فدوى نبض صدغيه في أذنيه وأحـس اختناقـاً، وضاق صدره، وبعث الجزع في صدره استهانة، فقال لنفسه: " اذا لبثت هنا فلن تنتـهي الليلة بسلام ". ونهض قائما واخذ معطفه وغادر المكان إلى البهو الخارجي، وكان يظـن أن الرجل حتما تابعه على الأثر، ولكنه لم يأبه لذلك كثيرا، وتقدم نحو الباب الخـارجي، فلفحه الهواء البارد، فارتدى المعطف، ثم انعطف نحو الطريق المؤدي إلى شارع فؤاد الأول ومضى في سبيله. وكان انتباهه موجها إلى ما وراءه، فوصل إلى أذنيه وقع أقدام تتبعه عن بعد قريب، وخال أن يرى صاحبها رؤية العين، ولكنه لم تؤاته شجاعته على إطاعة رغبته في التحقق من ذلك، فحث خطاه وقد عاوده بعض قلقه، وجعل يقول لنفـسه ليهـدئ روعها: " من الحماقة أن أخاف لصا أحق بأن يخافني ويخاف الناس جميعا. " ولكنه كـان يخشى في الواقع أن يبغت بما ليس في الحسبان، كما بغت بوجود الجنيه في جيبه، وعـزم على أن يتخلص نائيا من دواعي القلق، فأدنى يده من الجيب وامسك الورقـة بطـرفي إصبعيه وسحبها بلطف وتركها تسقط على الأرض وهو يقـول: " فليـذهب بـها إلى الشيطان "... ومضى وهو يتنفس الصعداء ! ... ولكنه لم يكد يخطو بضعة أمتار حـتى سمع هاتفا يقول: " يا أفندي "، فالتفت وراءه منزعجا لغير ما سبب واضح فرأى الرجل الذي كان يتبعه – وقد أدرك أن يراه لأول مرة في حياته – يقبل نحوه مادا يده بالجنيـه وهو يقول: " لقد سقط هذا منك " ! فأذهلته الدهشة وتناول الورقة بحركة آلية، وهـو

يعجب لهذا الجنيه الذي يأبى أن يفارقه، وألقى نظرة على ما حوله فوجد الطريق كالمقفر، فداخلته الطمأنينة وبات كل ما يهمه هو ماذا يصنع بذا الجنيه الذي لا حق لـه فيـه... وسار متفكرا ودس يده في جيبه فإذا بأنامله تلمس رزمة من الأوراق فارتجف كأنما مست نارا، واستخرج ما في جيبه فوجد في يده ثمانية جنيهات... رباه... هل تتوالد الجنيهـات في جيبه ؟ ... من أين جاءت هذه الثروة الصغيرة ؟!... ووقف ينظر في الأوراق بعيـنين ذاهلتين، وقد انعقد لسانه من الدهشة والإنكار، ولم يجد للمسألة إلا حلاً واحداً، هو أن النشال اختلس في الواقع جنيهات وخبأها في جيبه، ولكنه رأى طرف واحد منها فقط... وتفحص ما حوله بحذر فلم يجد ما يريبه، فاختبر الجنيهات بعناية فلم يعثر بـا علـى اى علامة ! فعجب كيف رضي الرجل أن يودع هذه الثروة جيبه ويرضـى مـن الغنيمـة بالإياب... ولم ير بدأ من العودة إلى بيته فقال لنفسه وهو يستأنف السير: " مهما يكـن من أمر هذه الجنيهات فسوف أجد وسيلة لردها إلى صاحبها... "

وفى صباح اليوم الثاني ذهب إلى قسم الرسم بالوزارة الحربية حيث يعمل رساما، ولم يكن انتهى من مسألته إلى حل، فجعل في نيته أن يستعين بمشورة أصحابه. على انـه بمجرد أن دخل الحجرة ووقع بصره على رئيسه نسى مسألته إلى حين. وعاودته عواطف الحنق والموجدة، وذكر العلاوة التي قد يحرم منها، فاسترجع ضيقه وحزنه. وكان يجلـس إلى جانبه شاب من زملائه المحبوبين يشاركه عواطفه نحو الرئيس، فمال وهمس في أذنه:

- انتقم الله لك منه.

فأدرك كامل انه يعنى الرئيس دون غيره فسأله بلهفة:

- كيف ؟

فقال الشاب بنفس الصوت الخفيض:

- أضاع أمس ثمانية جنيهات، وأنت تعلم مقدار حرصه وشحه !

فحدجه كامل بعينين متسعتين، وقد نفذ كلامه إلى قلبه، ولكن الآخر لم يفطن إلى بواعث دهشته الحقيقية، فاستدرك قائلا:

- وقد قال أنا كانت في جيب معطفه، وانه أودعها بنفسه هنا فلا محل للقـول بأنه فقدها في الطريق، وجعل يهدر مغيظا محنقا حتى كاد يذرف الدمع ساخنا.

ونظر كامل إلى مشجب الحجرة فرأى معطفه معلقا إلى جانب معطف الرئيس، فلم يشك في أن الرجل أودع نقوده في جيبه سهوا وخطأ، وهذا هو الحل المعقول للمسألة التي أفزعته في السينما، وسهدت ليلته وولدت في قلبه أوهاما لا أساس لها مـن الحـق... وهز رأسه وقد علت شفتيه ابتسامة، ونظر صوب الرئيس المكفهر الوجه بغيظ وكبر عليه أن يسخره القضاء لكشف غمته... على انه لم يكن من الآمر بد، فنهض متثاقلا ومـضى نحو مكتب الرئيس وابرز الأوراق من جيبه بسكون ووضعها بين يديه وهو يقول: " هاك نقودك ترد إليك بمشيئة الله " ! فحملق الرجل في الجنيهات ثم في وجهه، وثبت النظـارة على عينيه وقد جرت الدهشة في ناظريه وتألق وجهه بنور فرح لم يستطع كتمانـه ؟ ... فقص عليه الشاب القصة بحذافيرها.

ومنذ ذاك اليوم صفا بينهما الجو فلم يعد الرجل في نظره تركة بالية، ولم يعد هو في نظره غلاما مشاكسا.